

الأفق العلمى

د. محمد سامح سعيد

أستاذ بكلية الهندسة - جامعة القاهرة

=====

نحن بحاجة إلى أفق علمى إلى صورة مشرقة للغد . لاشك أن العصر الذى نعيش فيه هو عصر العلم والمعرفة . والأمة الجاهلة لا مكان لها فى هذا العالم حيث السباق على التقدم وعلى اكتشاف الجديد واستخدامه للارتقاء بالحياة . لا يمكن أن ينحصر همنا أفرادا وأمة فى الطعام ماذا نأكل وماذا نشرب وأين نسكن وكيف ندخل أولادنا الجامعة وكيف نحصل على متطلبات الحياة من شقة وسيارة ومحمول إلخ ثم ننظر حولنا فإذا الأسعار تلتهب والجنيه لا يقوى على مواجهة الحياة لماذا ؟ لأن قدرتنا الإنتاجية محدودة للغاية وحجم تصديرنا ضعيف والقيمة المضافة التى تقدر عليها غير كافية . ولذلك أصبح لدينا مشكلة بطالة خطيرة لأن الخريج لا يقدر أن يضيف إلى عجلة الإنتاج شيئا ولا توجد فرص عمل تستوعب هذه الأعداد من الخريجين . ليس الحل أن تنفض الدولة يدها من عملية التصنيع والاستثمار . من نصحنا بذلك أو ضغط علينا به لم يكن يرمى إلى صالح هذا الوطن ولم يسد لنا النصيحة الصادقة . ليس من المعقول الاعتماد كليا على القطاع الخاص فى حركة التنمية فى دولة يحجم فيها القطاع الخاص عن أى مشروع استراتيجى استثمارى جاد وينتظر أن يأتى المستثمر الأجنبى بماله وعتاده ليقيمه لنا . القطاع الخاص يبحث عن الربح السريع والأمان وليس هناك أيسر من الإنتاج الاستهلاكى أو الصناعات والخدمات الغذائية والآن خدمات الاتصالات . ماذا يضيف ذلك إلى قوة هذا البلد على المدى البعيد ؟ ماذا نتج لنصدره بينما نرى الصين تغزو الأسواق ليس أسواقنا فقط بل أسواق العالم كله وبأقل الأسعار . ظلت المقولة القديمة الجديدة أننا يمكن أن ننتج أى شىء ولكن حساب التكلفة يمنعنا فإن المنتج المصرى سيكون عالى التكلفة نظرا للمنافسة العالمية وفرق الجودة والعامل النفسى لدى الجمهور . فالناس تقبل على المستورد حتى لو كان من جنوب شرق آسيا . هذه المقولة كانت وما تزال العقبة الكأداء أمام أى صناعة متقنة فى مصر . مشكلتنا عدم الاستمرار مع تعاقب الحكومات والأنظمة ولا يستمر شىء فكل شىء يبدأ من الصفر . نعرج بين أنظمة اقتصادية لا تلائمنا من قريب أو من بعيد . جربنا الخط الاشتراكى وفشل لأن الكل أصبح موظفا يستحل مرتبا لا يعمل مقابله لأنه مطمئن . ولا يمكن أن ينتج الإنسان وهو فى حالة اطمئنان واسترخاء هكذا . لابد من التوتر والقلق والخوف وعدم الأمان كى يبدع الإنسان ويبث قدراته ويتنافس . ثم جربنا الحل الرأسمالى وفشل لأن الهوة زادت بين الأغنياء والفقراء . الأغنياء ازدادوا غنى بشكل متوحش والفقراء ازدادوا فقرا واقتربوا من حافة المجاعة مما يهدد بكارثة . لا هم

قادرون على مواجهة المتطلبات الأساسية للحياة من غذاء وعلاج ومسكن وتعليم ولا هم قادرون على تغيير أوضاعهم أو تحسينها - لا أفق لديهم ولا حيلة ولا أمل . وأصبح همهم ثقيلًا على الدولة التي تحاول جاهدة بلا طائل والسكان فى زيادة مستمرة والأعباء ثقيلة واليد مغلولة . لا بد من إيجاد حل . وهذا الحل لا بد أن ينبع منا لأن الأجنبي لن يعطينا هذا الحل طواعية ولا يوجد أحد فى هذا العالم يتمنى الخير لشعب آخر . الحل هو أفق علمى لمصر تخطيط جديد شامل يراعى الواقع المصرى من منظور تطوير الموارد البشرية وليس الإعانة الاجتماعية والدعم الضائع . هناك بشر بل عمل . طاقة معطلة . هؤلاء البشر يمثلون قدرات إبداعية وخلقة ولكن ليس لديهم الفرصة . لا يمكن أن نشكى من تعداد السكان بينما الصين والهند يمثلان معا نصف سكان الكرة الأرضية وكلا الدولتين تتبوءان موقعا متميزا على خريطة العالم الصناعية والتكنولوجية . وليس عندهما بترول . بل عندهم طبيعة قاسية وأوبئة مخيفة . ولكن عندهم أفق علمى رأوه وسعوا إليه حديثا مهما تعاقبت الحكومات . سلمت كل حكومة ما وصلت إليه إلى الحكومة التى تليها والنتيجة استمرارية فى الأداء وصولا إلى الهدف . الصين طوعت شيوعيتها لتلبس رداء رأسماليا تغزو به العالم ولم تسحب الدولة يدها من العملية بل شاركت القطاع الخاص والاستثمار الأجنبى . وليست الصناعة الصينية جميعا وإنما إنتاجا حقيقيا . ما الذى تملكه الصين من قدرات ذهنية لا نملكها ؟ وماذا تملكه الهند من قدرات ذهنية لا نملكها ؟ بل وماذا تملكه سنغافورة وماليزيا وتايلاند والفلبين وكوريا ؟ قلت مرة لأحد المستثمرين الكوريين الجنوبيين : ألا يمكن أن تساعدنا كوريا الجنوبية فى إنشاء قاعدة صناعية كبيرة فى مصر ؟ فضحك وقال نحن الفلاحون الكوريون نساعد مصر العظيمة ذات الأهرامات والتاريخ العريق ؟ أخرجتني إجابته فصمت . كيف انطلقت هذه الدول من الفقر إلى الرخاء من الضعف إلى القوة ومن التخلف إلى التقدم . لا يوجد حل ولا طريق إلا طريق العلم مهما رفعت شعارات فارغة وخطب عصماء لا تسمن ولا تغنى من جوع . بالعلم تزهو الأمم وتتفاخر بإنجازاتها العلمية . أمريكا سيدة هذا العالم وصلت إلى ما وصلت إليه بالعلم بعقول من جذبهم من أطراف الدنيا ومنهم أبناؤنا الذين فرطنا فيهم . بالعلم تحاول دول العالم الثالث أن تقوى وتتنافس حتى مع العمالقة . بالعلم يتحقق الأمن الاستراتيجى ويصبح للسلام معنى فلا سلام بغير قوة تحميه قوة اقتصادية وصناعية وعسكرية . العلم وحده يغير المجتمع . وبالعلم وحده يحدث التقدم ويرتقى مستوى المعيشة . لا بد أن ينتشر التخطيط العلمى فى كافة نواحي الحياة بدءا بالتعليم والإعلام والثقافة وهى فى رأبى خندق واحد وبه ينتشر فى كل مجال .